

روح المعاني

يجعل ذلك مقصودا بالذات كأول بل جعل صلة للموصول المحذوف عائدته أي الذي كذبوه
إيدانا بأنه بين في نفسه وإنما المحتاج إلى البيان عدم إيمانهم بعد تواتر البينات
الباهرة وتظاهر المعجزات الظاهرة التي كانت تضطرهم إلى القبول لو كانوا من ذوي العقول
والموصول الذي تعلق به الإيمان والتكذيب إيجابا وسلبا عبارة عن جميع الشرائع التي جاء
بها كل رسول أصولها وفروعها وإن كان المحكى جميع أحوال كل قوم منهم فالمراد على ما قيل
بما ذكر أولا كفرهم المستمر من حين مجيء الرسل عليهم السلام إلى آخر أمرهم وبما أشير
إليه آخرًا تكذيبهم قبل مجيئهم فلا بد من جعل الموصول عبارة عن أصول الشرائع التي لا تقبل
التبدل والتغير واجتمعت الرسل قاطبة عليها ودعوا الأمم إليها كلمة التوحيد ولوازمها
ومعنى تكذيبهم بها قبل مجيء الرسل أنهم كانوا يسمعونها من بقايا من قبلهم فيكذبونها لا
أن العقل يرشد إليها ويحكم بها ويخالفونه ثم كانت حالهم بعد مجيء الرسل إليهم كحالهم
قبل كأن لم يبعث إليهم أحد وتخصيص التكذيب وعدم الإيمان بما ذكر من الأصول لظهور حال
الباقي بدلالة النص فإنهم حين لم يؤمنوا بما اجتمعت عليه كافة الرسل فلأن لا يؤمنوا بما
تفرد به بعضهم أولى وعدم جعل هذا التكذيب مقصودا بالذات لما أنه ليس مدار العذاب بل
مداره التكذيب بعد البعثة كما يفصح عنه قوله تعالى : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا
وإنما ذكر ما وقع قبلها بيانا لعراقتهم في الكفر والتكذيب وقيل : المراد بما أشير إليه
آخر تكذيبهم الذي أسروه يوم الميثاق وروي ذلك عن أبي بن كعب والربيع والسدي ومقاتل
واختاره الطبري .

وأخرج ابن جرير وابن حاتم وغيرهما عن مجاهد أن الآية على حد قوله تعالى : ولو ردوا
لعادوا لما نهوا عنه فالمعنى ما كانوا لو أهلكناهم ثم أحييناهم ليؤمنوا بما كذبوا قبل
إهلاكهم وعلى هذا فالمراد بالموصول جميع الشرائع أصولها وفروعها وفيه من المبالغة في
إصرارهم وعتوهم مالا يخفى إلا أنه في غاية الخفاء وأيا ما كان فالضمان الثلاثة متوافقة
في المرجع وقيل ضمير كذبوا راجع إلى أسلافهم والمعنى فما كان الأبناء ليؤمنوا بما كذب به
الآباء ولا يخفى ما فيه من التعسف وذهب الأخفش إلى أن الباء سببية وما مصدرية والمعنى عليه
كما قيل : فما كانوا ليؤمنوا الآن أي عند مجيء الرسل لما سبق منهم من التكذيب الذي
ألفوه وتمرنوا عليه قبل مجيئهم أو لم يؤمنوا قط واستمروا على تكذيبهم لما حصل منهم من
التكذيب حين مجيء الرسل .

كذلك أي مثل ذلك الطبع الشديد المحكم يطبع □ على قلوب الكافرين .

- أي قلوبهم فوضع المظهر موضع المضرر ليدل على أن الطبع بسبب الكفر وإلى هذا يشير كلام الزجاج وصرح به بعضهم ويجوز ولعله الأولى أن يراد بالكافرين ما يشمل المذكورين وغيرهم وفي ذلك من تحذير السامعين ما لا يخفى وإظهار الاسم الجليل بطريق الإلتفات لتربية المهابة وإدخال الروعة وما وجدنا لأكثرهم أي أكثر الأمم المذكورين ووجد متعدياً لواحد واللام متعلقة بها كما في قولك : ما وجدت لزيد مالا أي ما صادفت له مالا ولا لقيته أو بمحذوف كما قال أبو البقاء وقع حالا من قوله تعالى : من عهد لأنه في الأصل صفة للنكرة فلما قدمت عليها انتصبت حالا ومن مزيده للإستغراق وجوز أن تكون وجد علمية والأول أظهر والكلام على تقدير مضاف أي ما وجدنا وفاء عهد كائن لأكثرهم فإنهم نقضوا ما عاهدوا عليه □ تعالى عند مساس البأساء والصراء قائلين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين وإلى هذا ذهب قتادة وتخصيص